السّخريّة بين التّجلي والقصديّة في المنام الكبير للوهراني

The irony between manifestation and intentionality in the great dream of Al-Wahrani

طالب دكتوراه: عمر حميداتو
الدكتور: العيد حنكة

قسم اللغة والأدب العربي، جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي (الجزائر)
مخبر التّكامل المعرفي لعلوم اللّغة العربيّة وآدابها والعلوم الاجتماعيّة جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي (الجزائر)
omar-hamidatou@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع: 2020/10/29 تاريخ القبول: 2021/01/11 تاريخ القبول: 2021/03/15

ملخص

تعدّ السّخرية أسلوباً من الأساليب التي ينتهجها المرء من أجل النّقد ومجابهة الظّلم وما شاكله من صور القهر والتّهميش؛ وذلك بأن تظهر في صورة المفارقات بين ما هو واقع وبين ما يُفترض أن يكون، وقد انتشر هذا النّوع من السّرد عند كثير من الأدباء في عصور مختلفة، ونجده في الأدب الجزائري القديم عند "ركن الدين الوهراني" في مناماته. فقد عبّر الوهراني بشكل ساخر عن بعض الشّخصيّات، ونظر إليها بازدراء واستهزاء، ونقداً واستهجاناً للوضع المستنكَر الذي رفضه الكاتب الذي لا يتماشى والمنطق الفكري للدّين والعقل، وقد طالت سخريّته شيخه «الحافظ العليمي»، حتى نفسه كذلك لم تسلَم من سلاطة لسانه اللّاذع.

يقدّم لنا الوهراني في "منامه الكبير" -الذي يمثّل ردًّا عن رسالة شيخه العليمي، التي كانت بمثابة العتاب الذي أثار سخط الوهراني- والذي من خلاله قدّم نقده حول طبيعة علاقات المرء بمن حوله، ووصف الواقع من خلال شخصيّات نمطيّة اختارها لتكون ممثّلة عن باقي الشّخصيّات المتشابهة في الأفعال والصّفات، في مشاهد مناميّة؛ من أجل التّعبير عن الواقع وإدانته.

نريد من خلال هذا المقال إبراز وجهاً من وجوه الإبداع الجزائري القديم، من خلال أديبٍ غمره الزّمن ولم يوفّه حقّه، كذلك إعطاء القيمة الحقيقيّة للعمل الذي أبدعه والبحث في أسلوبه ومقصديّته، وذلك من خلال البحث في نص المنامات عن طرق وأساليب السخريّة المتّبعة في نقد للواقع، وتقصّي الوقائع والحوادث والمشاهد المناميّة والقصد من إثرائها.

الكلمات المفتاحيّة:

السّخرية ، السّرد السّاخر ، نقد الواقع ، المنام ، ركن الدين الوهراني ..

Abstract:

Irony is one of the methods one uses to criticize and confront injustice and similar forms of oppression and marginalization, by appearing in the form of paradoxes between what is reality and what is supposed to be, and this kind of narration has spread to many writers in different eras, We find it in ancient Algerian literature at "Rukn ad-Din al-Wahrani" in its dreams. Al-Wahrani ironically expressed some of the personalities, and viewed them with contempt and mockery, criticism and disapproval of the deplorable situation which the writer refused, which is not in line with the intellectual logic of religion and reason, and his mockery extended to his Sheikh Al-Alimi, even himself also did not escape the authority of his sharp tongue.

Al-Waharani presents to us in his "great dream" - which represents a response to the message of his sheikh Al-Alimi, which was like a reproach that sparked Al-Waharani's discontent - and through which he presented his criticism about the nature of one's relationships with those around him, and described reality through stereotypical personalities he chose to be represented by the rest of the personalities Similarities in verbs and adjectives, in developing scenes, in order to express and condemn reality.

We want, through this article, to highlight a facet of the old Algerian creativity, through a writer who was immersed in time and not fulfilled his right, as well as giving the true value of the work that he created and researching his style and intention, by searching in the text of dreams about the ways and methods used to criticize reality, Investigate the facts, accidents and developing scenes and their intention to enrich them.

Key words

Irony, The satirical narration, reality criticism, dream, Rukn ad-Din al-Wahrani..

1/ إجراءات منهجية:

قبل أن نلج بحر هذا الموضوع والغوص في أعماقه، كان لزاماً علينا أن نقدّم مفاهيم حول بعض المصطلحات التي تمثّل أساسيّات هذا البحث.

1-1/ السّخرية:

في اجتماع الأحرف الثّلاث "السين والخاء والرّاء. أصل مطّرد مستقيم يدلّ على احتقار واستذلال"[1]، وهو بمعنى الاستهزاء تقول: "سخر منه وبه أي استهزأ"[2]. "والإسم السّخرية"[3]. ولا يبتعد المفهوم الاصطلاحي للسّخرية على ما يدلّ عليه المفهوم اللّغوي، فالمقصود بالسخرية هو أن يهزأ الشّخص الهازئ بالشّخص المقصود بالإذلال والاحتقار، ولا يكون ذلك إلاّ عن طريق أسلوب التّلاعب بالألفاظ التهكميّة، ويكون أسلوب التورية هو الغالب. فمن الباحثين من اصطلح على السّخرية بأنّها "طريقة في الكلام يعبّر بها الشّخص عن عكس ما يقصده بالفعل في حالة استهزاء وتهكّم"[4]. وهي مجال للنّقد وسلاح فتّاك في يد المرء، إذ تعدّ "صورة من صور الفكاهة تعرض السلوك المعوج أو الأخطاء، التي إن فطن إليها وعرفها فنّان موهوب تمام المعرفة، وأحسن عرضها، تكون حينئذ في يده سلاحاً مميتاً"[5].

1-2/ محمد بن محرز الوهراني[6]:

الملقّب بـ: ركن الدين، قدم من بلاده إلى الدّيار المصريّة في أيّام السّلطان صلاح الدّين، سلك طريق الهزل وعدل عن طريق الجدّ، وعمل المنامات والرّسائل، تنقّل في البلاد وأقسام بدمشق زماناً، وتولّى الخطابة بداريا، وهي قرية على باب دمشق في الغوطة، توفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة بداريا، رحمه الله تعالى. ولقّب بالوهراني نسبة إلى بلده وهران، وقد ذكر ابن

خلكان في الوفيات عن البلد فقال: «وهي مدينة كبيرة في أرض القيروان، بينها وبين تلمسان مسافة يومين، وهي على ساحل البحر الشامي»، ولا تزال إلى يومنا هذا تحتفظ بهذا الإسم، وهي واقعة في الشّمال الغربي لدولة الجزائر، وتبعد عن العاصمة الجزائر بـ 350 كم.

3-1/ المنام الكبير:

هو منام مأخوذ من كتاب ألّفه الوهراني، وأسماه بـ: «منامات الوهراني ومقاماته ورسائله» وهي مشاهد عرضها الكاتب في عرصات الدّار الآخرة، وهذا المنام يمثّل جزء من الكتاب الذي ضمّ عدداً من المقامات والرّسائل كذلك، والكتاب به حوالي أربع وأربعين نصًّا، وأشهر هذه النّصوص هو المنام الكبير، الذي يُعَدّ من بين ثلاثة منامات، الذي قال فيه ابن خلكان: «"لو لم يكن له فيها إلا المنام الكبير لكفاه، فإنّه أتى فيه بكل حلاوة، ولولا طوله لذكرته"»[7]. كذلك في الكتاب مقاماته؛ الأولى الذي تناول فيها مسائل سياسيّة وقد كتبها في بغداد، الثّانية نقد فيها الظواهر الاجتماعية، والثّالثة التي سمّاها بالمقامة الصِقِلّيّة لجأ فيها للمدح، والجزء المتبقي يشكّل رسائله الأدبيّة التي أبدع فيها وأنطق فيها الجماد والحيوان.

2/ مدخل:

تستعمل السّخرية كوسيلة لإثارة الغَيْظ عند الغَيْر، وتكون نتيجة استفزاز، أو تنشأ بصدد ترميم صدع قد يحدث في المجتمع؛ من خلل في الموازين والرؤى أو لوضع الأمور في غير نصابها، فيكون التّعبير الموجَّه متشكّلاً بصورته السّاخرة أبلغ تعبيراً وأكثر وقْعاً؛ وهذا من أجل إعادة الأمور إلى طبيعتها.

نلمس هذا الأسلوب في التّعبير عند كثيرٍ من الأدباء، خاصّة ممّن يكون الهزْل طبْعه، وهو غرض من الأغراض الأدبيّة في النّثر والشّعر. ولقد عرف الأدب العربي منذ القديم العديد من الأدباء ممّن عُرفوا بالأسلوب الهزْلي وطرق التهكّم والمفارقة السّاخرة في إرسال المعاني والتورية المتعمّدة. من بين هؤلاء الأدباء: محمد بن محرز الوهراني المكنّى بركن الدّين الوهراني. وقد وقع اختيارنا على نصٍ من كتابه منامات الوهراني ومقاماته ورسائله؛ وهو المنام الكبير.

يمثّل المنام الكبير نقداً للواقع ووقوفاً ندّاً للتصرّفات غير المقبولة في عادات النّاس وفي الدّين، وهو عبارة عن ردٍّ لرسالة «الحافظ العليمي» التي بعثها لخادمه «الوهراني»، وقد أوقدت هذه الرسالة نار الغضب في صدر «الوهراني»؛ لأنّها مثّلت انتقام العليمي منه، بسبب رسالة أرسلها الوهراني لشيخه العليمي وقد مازحه فيها، وخاطبه باسمه دون ذكر ألقاب التمجيد والرّفعة التي تليق بشيخه. جاءت العبارات الدّالة على ذلك على لسان الوهراني في قوله: «"قد استفتحه بطلب الثّأر من مزاح الخادم معه في كتابه الكريم المقدّم إليه من ثلاث سنين في مخاطبته بمجرّد الإسم وحذف جميع الألقاب"»[8].

ولكي نقف على أهمية هذا النّص، ونستخرج منه دُرَره الثمينة، ونتحرّى هيكله ونسيجه وطرائق هندسته، ونلتمس أبعاده ومقاصده، من الضّروري البحث في أسلوب الكاتب في كيفيّة تشكيل خطابه السّاخر المعتمد على المفارقة لإيصال المعنى، وكذلك البحث في القصد والمبتغَى من خلال الأسلوب السّاخر.

إنّ هدفنا في المقام الأوّل هو التّعريف بالكاتب الذي لم ينل نصيبه من الذّكر، وكتاباته لم تُعرَض للدّراسة والتّحليل بالقدر اللّازم، لذلك من اللّائق بنا أن نلتفت لأعماله وإعطائها الأهميّة اللّازمة التي تستحقّها. وتساؤلاتنا تدور حول محورين؛ أولاهما: كيفيّة تمثّل السّخرية التي عمد إليها الوهراني في منامه الكبير في تمرير رسائله؟ وثانيهما: ما هو القصد من اختياره لأسلوب السّخرية في طرحه؟

3/ أساليب السّخرية في المنام الكبير والقصد منها:

تتعدّد أساليب السّخرية من أديب لآخر، كما تتباين بحسب المقام أو الموقف، كما أن السّخرية أنواع: فمنها ما تتجلّى من أجل النّقد، ومنها ما يكون لإثارة الضّحك وكفى، وهذا ما يولّد عندنا نوعين من السّرد الساخر؛ نوع يجعل السّخرية غاية له، وهذا النّوع يكون الإتيان به على وجه الفُرجة والتّرويح، ونوع يتّخذ من السّخرية وسيلة لا غاية، وهذا النوع يكون الهدف من اتّخاذ الأسلوب السّاخر فيه من أجل الانتقاد والتّوجيه والإصلاح وإظهار الحقّ وإزهاق الباطل.

ينتمي الأسلوب السّاخر في المنام الكبير للنّوع الذي يتّخذ من السّخرية وسيلة لا غاية، فالوهراني حينما جنح للسّخرية في سرده كان ذلك من أجل نقد الواقع، وما يتخبّط فيه كثير من النّاس في عصره من التّناقضات.

وما افتتاح منامه بوصف حاله حينما أتاه كتاب شيخه العليمي؛ من ذاك الشّوق الذي كان يُكِنّه لشيخه والذي قُوبل بالتّوبيخ بدل التّرحيب لَدليل على ما وصل إليه حال النّاس في زمانه، أو لنقل ما كان يَحِيك في صدر الكاتب من تذمّر وإنكار الباطل لما هو واقع، ومن تطلّع لما يُفترَض أن يكون. فنجده يعبّر عن ذلك بقوله: «**"وصل كتاب مولاي الشّيخ الأجل (...) فكان ألذّ من النّار في عين المقرور، وأعذب من الماء البارد في صدر المحرور (...) على أنّه وجد بين جوانح الخادم من نار الشّوق أجيجاً، (...) فرماه الدّهر بالحظ المنقوص"**»[9].

وذهب يُعدّد مَدْحَه لشيخه، ويصف حال ذاته، ليحقّق مبدأ المفارقة المتمثّلة في حصوله على الذّم وهو في هذه الحال، من شوق وحنين لشيخه ولسوء معيشته وضنكها، وهذا المدح من باب السّخرية لأنّه يُبطن الذّم، وهو أحد أساليب السّخرية والتّهكّم التي يتمثّل فيها "معالجة الشّيء الحقير كأنّه عظيم، أو ما يسمّى في الأدب العربي الذّمّ بما يشبه المدح"[10]، فبدل المواساة والكلام الحسن يسلّط عليه الكلام القاسي الذي تنهدّ له الجبال، لذلك نجده قائلاً: «**"فتمنّى على الله ريحا صبّاً تهبّ من نحو بلاده وأولاده، لتُبرِّد غليل فؤاده، فهبّت عليه من نحو صحراء عَيْذاب، بكلّ نقمة وعذاب"**»[11].

فهو يستعمل التّشبيه للتّمثيل، كمن ينتظر خيراً يأتيه بدل ذلك شراً. فنلحظ في بداية كلامه ذاك المدح الذي قاله في شيخه كان بمثابة السّخرية، فعِوض أن يعبّر بطريقة مباشرة عن الواقعة، راح يعبّر عن أحاسيسه التي كانت تختلج في صدره نحو شيخه ولم يُخْفها طوعاً، لكن سرعان ما يَعْدل عن ذلك ليفصح عن الخيْبة التي أصابته وخيّمت بظِلالها على كيانه، ليعطينا الصّورة الحقيقيّة التي تستتر وراء الزّخارف المنمّقة التي يلبسها شيخه، ليتشكّل عندنا شكلاً من أشكال السّخرية كمن يرفع الشّيء عالٍ ببطء شديد لكن إنزالُها يكون على شكل سقوط حرّ يهوي إلى الأرض، ليكون التّنكيل أعظم.

وقد تفنّن الوهراني في هذه الافتتاحيّة التي أبدع فيها بلغة رفيعة وتسلسل في الأحداث، بدء من تلقّيه لكتاب شيخه وإظهار أحاسيسه ووصف حاله، ليظهر لنا كمرحلة انتقاليّة من

الهدوء إلى الاضطراب. لينتقل التّعبير إلى مستوى آخر يريد الكاتب أن يدخلنا عالم اللّاواقع التي تفضح فيه دسائس الخلائق بما تضمره الأنفس. ليجد إلى ذلك سبيلاً وانصرافاً بما تتطلّع له نفسه، باستنتاجه الذي خلُص إليه، و المتمثّل في ما ينتشله من حاله هذا إلا السّفر البعيد إلى عالم الآخرة، الذي يُنهي هذه الحياة الموسومة بالعمل ولا حساب، لنخلص للدّار الأخرى الموسومة بالحساب ولا عمل، بطرح تساؤلاته المتتالية عن مصيره. ليعبّر عن ذلك بأدب رفيع: **«"فتذكر حينئذ ما خلّفه من الرّبوع، وحنّ إلى تسلسل الماء في الينبوع، واشتاق إلى الجداول الساقية،(...) وعَلِم أن سفره عن السّفيرة والكبرا، هي الطّامّة الكبرى، وعدم الصّبر والسلوان، عن دير سلوان، فقال في نفسه أترى الذي خلقني وبراني، يعيدني إلى جنّة الزبداني؟ أتراه يجمع شملي في كفر عامر، بالسّادات من بني عامر"»**[12]. إنّ هذه الافتتاحيّة اشتملت على ذكر الأحاسيس والمشاعر التي انبعثت عنها الكتابة من بعد، فهي بمثابة مقدّمة المتن الذي تمثّل في المنام، وفي خضم هذا السّفر البعيد، يتوجّه الوهراني إلى الكتاب الذي جاءه من شيخه فيصفه شرّ وصف حينما أراد الردّ عن ذاك الكتاب؛ لأنه تعدّى المتوقّع منه أن يكون، في قوله بلسان الغائب عن حاله المتضجّرة: **«"ويريد الخادم أن يطلق يده وقلمه، ويسابق بها لسانه وفمه، فإنّه قد لحقه من الضّجر والكلال ما يلحق الجحش الصغير إذا حمل أحمال البغال القروح،(...) فتناول حينئذ كتابه الكريم الوارد، وكرّر نظره في أثنائه ليجاوب عن فصوله المتضمنّة فيه، فوجده صفراً من الأنباء خالياً (...) قد استفتحه بطلب الثّأر من مزاح الخادم معه في كتابه الكريم المقدّم إليه من ثلاث سنين في مخاطبته بمجرّد الاسم وحذف جميع الألقاب"»**[13].

ليواصل السّخرية من شيخه وكتابه المقدَّم من طرفه، بوصفه خالياً من الفائدة، وأنّه يَنِمّ عن حِقْد دفين وثأر متأجّج في الصّدر على الرّغم من طول المدّة على الحدث بقوله: **«"وعَجِب الخادم من تمكّن ذلك الحقد من قلبه واستيلائه عليه، وثباته له بين الحشا والتّرائب، ولم يُخرجه من صدره ضجر القعود بدمشق ولا البطالة فيها مع الزمان(...) كأنّما لصق صدر كتابي في صدره بأمراس أو كأنّما سُمِّر فيه بمسمار وثيق، وأظنّه لو مات والعياذ بالله قبل أخْذِه لثأره لمزّق الأكفان ونبش المقابر ورجم أهل الآخرة بالحجارة»**[14]، وقد تمثّلت السّخرية في هذا المقطع في صورة الهزل مع التهكّم والاستهزاء بألفاظ مضحكة، والهدف من

ذلك تعرية الخصم وتجريده من كل ما يتستّر به من أخلاق مزيّفة، كذلك تُمثّل السّخرية بمثابة الرّد، الصّاع صاعَيْن من ذاك الثّأر واستنكاره له، وتبيين شدّة البُغض والحقد الملازم للعليمي تجاهه، بأسلوب فيه إمتاع للمتلقّي والتّرويح عنه، ولِيجد القَبول والاستحسان عنده.

وفي نقطة انتقال الكاتب من افتتاحيّته إلى متْن منامه، يرسم لنا مشهد الحيرْة والقلق تجاه هذا الحدث، مشكّلاً هاجساً أدخله في اضطراب نفسي، ليكوّن ذلك الاضطراب مشاهد مناميّة تخيَّل له حال استسلامه للنّوم، لينتقل بعد ذلك إلى عالم الآخرة، وتبتدئ رحلته السّاخرة من فضح المستور والإفصاح على ما يريد تبليغه بكل حريّة، والتّحرر من الرّقيب في قوله: «**"وبقي طول ليلته متعجّباً من مطالبته له بالأوتار الهزليّة بعد الزّمان الطّويل، وامتنع عليه النّوم لأجل هذا إلى هزيع من الليل. ثم غلبته عينه بعد ذلك فرأى فيما يرى النّائم كأنّ القيامة قد قامت،..."**»[15].

وهو لا يتورّع حتّى من السّخرية من نفسه، في سبيل السّخرية من غيره. فيعمد إلى ذلك بتصويرٍ فنّي هزلي، والقصد منه السّخرية من شيخه العليمي، فبينما هو في ذلك الهول العظيم إذ تشتهي نفسه إلى الطّعام والشّراب جاء ذلك في قوله: «**"كنت أشتهي على الله الكريم في هذه السّاعة في هذا المكان رغيفاً عقيبياً، وزبدبة طباهجة ناشفة، وجبن سنارى، ونعارة نبيذ صيدناني، والحافظ العليمي ينادمني عليها بأخبار خوارزم(...) وأبو العز بن الذّهبي يغازلني بعينيه، ويسقيني الصّرف من النّعارة حتى يغرق حسّي وأغيب عن الوجود"**»[16]. وهو إذْ رضي أن يسخر من نفسه، ليُغرِق شيخه العليمي و«أبو العز الذهبي» حين شاركهم في شرب الخمر، والقصد من ذلك بأن شيخه العليمي وأبو العز الذهبي لا يتحرَّوْن عن ارتكاب الخطايا وانتهاك الحرمات، وهو إذ يستعمل هذا التهكّم وهذه السّخرية لا من أجل إثارة الضّحك، أو لأخذ الثّأر من شيخه العليمي فحسب، بل لاستغلال الفرصة لنقد الواقع من خلال تسليط اللّوم وكشف اللّثام عن كل عمل مُشين يتعارض مع المروءة والدّين.

ثم تتوالى المقاطع السّرديّة ليرسم لنا الكاتب مشاهد تحكي حكاية جديدة، لإثارة قضيّة أخرى وفضح صاحبها، وكأنّنا ضمن حكاية إطارية تشكّلت في الافتتاحيّة، لتتوالد عنها حكايات متسلسلة في المتن الذي يتمثّل في المنام.

ومن أجل فضح شيخه العليمي مرّة أخرى، ابتكر الوهراني مشهداً دراميّاً تمثّل في حواره مع «عبد الواحد بن بدر»، وألبس الوهراني هذا الأخير إثارة الفضيحة التي سيلحقها بالعليمي، وأنّه هو المتسبّب في ذلك. حيث يقول: «**"فما انقضت أمنيتي حتى طلع عبد الواحد بن بدر من جانبي وقال لي: السّاعة رأيت عدّة جَوارٍ يطلبونك، مع بعضهم أولاد يزعمون أنّهم منك، وأنت تنفيهم عنك، وبعضهم يدّعي أنّك بعتهم لغيرك، وهم حُبالى منك، فقلت له: هوّن عليك يا شيخ (...) وقلت: لو أني مثل الحافظ العليمي الذي لا يقتني إلا الغلمان الذّكور كلّما الْتحى واحد باعه وأخذ آخر، ما حلّت بي هذه المصيبة"**»[17].

فأسلوب الوهراني في السّخرية فيه إبداع وتخطيط مسبَق، يَنمُّ عن عبقريّة في الطّرح، لا يستعمل الأسلوب المباشر في التّوجيه بل يستعمل التّعريض، فكثيراً ما تستعمل العرب "التعريض في كلامها كثيراً، فتبلّغ إرادتها بوجهٍ هو ألطف وأحسن من الكشف والتّصريح"[18]، فيبتكر موقفاً يتيح له بثّ السّخرية، ويمرّر من خلالها بضاعته التي يريد إيصالها للمتلقّي، والموقف الهزلي واستعمال المفارقة في الموقف المثير للضّحك هو المعدّل لمؤشر السّخط الذي ينشب من جرّاء السّخرية، فـ"السخرية بالمفارقة في الحوادث تسمّى سخريّة القدر ويستخدمها السّاخر بمهارة في القصص"[19].

في المقطع السّابق ابتدأ الوهراني بتوجيه الاتّهام على نفسه، ولكن المقصود هو الحافظ العليمي، فعندما أراد فضح العليمي، قبِل فضح نفسه مقابل جرّ الحافظ العليمي إلى ما هو أعظم بلاء؛ من تورطه في بيع ما لا يجوز بيعه من الجواري، وأتى بفضيحة الحافظ العليمي على أنّها خلاص له على الرّغم من عمله المشين، على اعتبار بأنّ ما كان من أمر الحافظ العليمي هو أقلّ ضرراً منه، إلاّ أن المقصود هو الإطاحة به وفضحه بسخريّة وتهكّم.

إنّ النظر إلى الصّورة الدراميّة بشكل عام تضعنا أمام عمل فنيّ استعمل فيه صاحبه كلّ الحِيَل المبتكَرة لجعْل الموقف مُوجعاً على المقصود بالخطاب، وشافياً لغليل صاحب الخطاب، بإشراك المتلقّين لهذا الخطاب من السّخرية بالمقصود بالخطاب والهزء به، وإخراج الخطاب بهذه الصّورة وعلى هذه الشاكلة مقصودة؛ لكي لا يعامل بالنّفور والاستنكار، ولأن النّفس تتوق للمرح والضّحك، والمفارقات قد تترك فيه نشوة الضّحك التي تمتزج بأخذ العبرة.

وعندما أراد أن ينتقل لفضيحة أخرى، استغلّ «عبد الواحد بن بدر» كذلك ليثير من خلاله ما يريد قوله، فجعل ذكر الحافظ العليمي على لسانه يذكّر «عبد الواحد بن بدر» بما كان بينه وبين الحافظ العليمي في المقطع التّالي: **"فقال عبد الواحد بن بدر: ذكّرتني بهذا القول السّاعة كان الحافظ العليمي يقلّب عليك الأرض فقلتُ له: وأين أجده؟ فقال: هذا هو واقف مع النّبيه بن الموصلي..."**[20].

وهو أسلوب سلس في الانتقال من مقطع سرديّ إلى مقطع سرديّ يحمل حكاية مختلفة، لكي لا يقع النّشاز في ذهن المتلقّي فينقطع الاستمتاع ويحدث النّفور، بل يحافظ على شدّ المتلقّي إليه وطلب الاستزادة من الحكْي. كما أنّه أراد أن يصوّر الغلّ الذي كان يُكنّه الحافظ العليمي له في صدره لمجرّد أمر تافه، ليصل إلى حدّ الضّرب الذي تلقّاه منه حينما لقِيَه في أرض المحشر؛ ليبين مدى سخطه الذي لا تردعه حتى أهوال القيامة والجوّ المهيب الذي يجعل من الإنسان يعدل عن أفعال هو في غنىً عنها، لأنها لا تنفعه وما هو مقبل عنه من شأنه أن يصرفه عن تتبّع الغير والأخذ بثأره وهو على هذا الحال، وذلك في قوله: «**"وسرتُ إلى نحوك وناديتك فأقبلتَ إليّ تجري، وما كلمتني كلمة دون أن لكمتني لكمة موجعة وشتمتني ولعنتني وطيّرت في وجهي خمس أُواق بُصاق كعادتك عند الكلام وقلتَ لي: يا عدو الله ما كفاك أنّك خاطبتني بنون الجمع وكاف المخاطب حتى ذكرت اسمي بغير كُنية ولا لقب؟..."**»[21].

والسّخرية متمثّلة في المبالغة في الحقد، وكذلك السّخرية من عاداته التي هي من طِباعه الخاصّة والتي عُرف بها من تطايُر البُصاق من فمه عند الكلام، وهي خِصلة لصيقة بالحافظ العليمي، وقد أتى بها في هذا الموضع من باب الاستهزاء، وليعيره بها بداعي السّخرية منه.

إنّ أسلوب الوهراني في منامه يسير على طريق جانبيّ في التّوجيه الخطابي، ذالك لأنّ تلْكم المحاورات التي دارت بينه وبين الحافظ العليمي كانت من صنع مخيّلته، وهو فحوى خطابه الذي أراد أن يرسله إليه، إلاّ أنه تحرّى فيه التّورية وسلَك طرقاً ملتوية في التّعبير، ولإثارة بعض القضايا الخفيّة التي لا تقبل المسلك المباشر تجنّباً للتّكذيب وإثارة الشّك في صدقها.

كما نرى في المقطع الموالي الذي يمثّل الحوار الذي دار بين خازن جهنم والحافظ العليمي: **"وسَحَبنا إلى النّار فارتعنا إلى ذلك ارتياعاً عظيماً (...) فقلتَ له: يا سيّدي...فيقولُ: هات كلمتيك قل ما تشاء أن تقول (...) فيقول لك: يا خبيث أنت كنتَ من المتفنّنين في اللّياطة..."**[22].

فلو فرضنا أنّ الوهراني جعل توجيه خطابه مباشرة، لكان مَدْعاة لعدم التّصديق ولرُمِيَ بالبهتان والافتراء، لكن دفْعاً للتّهمة عنه؛ أَلبس كل ما أراد قولَه لغيره، وضمّنها في مرئيّات مناميّة، للتملّص من كل ما قيل وما حيك ضد الحافظ العليمي. ثمّ إنّ في التّعبير السّاخر والإتيان بالمواقف المتشابهة الأحوال في الدّنيا أكثر وقعاً في الأذهان، كما كان في هذا المقطع الذي يقول فيه الوهراني: «**"وحانت منّي الْتفاتةٌ فأرى أبا المجد بن أبي الحكم عابراً وفي يده ورقة مذهّبة حمراء، (...) فقال: هذه رقعة المؤيّد بن العميد بعثها معي إلى رضوان خازن الجنّة يطلب منه تطعيم كمْثري عنّابي (...) وقد لقيني أبو الحسن بن منير فخطف الرّقعة من يدي وقرأها وقال: هذه رقعة رجل دهّان عارف بجُلّ الأصباغ وإنزال الذّهب، لكنّه جاهل بصناعة الكتابة ظاهر التكلّف فيما يريد أن يتمّم نقص الصّناعة ويستر عوارها بالألوان المشرقة والأوراق المصبغة (...) فلا يجوز أن يكاتب بمثل هذه الرّقاع إلاّ القيان المعشوقات، والظّراف المساحقات، كن عاقلاً وردّها على صاحبها قبل أن تُلطَم على باب الجنة (...) هذا طلائع ابن رزيك مع سخافة عقله وسكره من خمر الولاية قال يوماً في مجلسه لما عرض عليه الشيرزي قصائد الشعراء (...) وفي جملتها رقعة لابن العميد فيها سطر مكتوب بالأخضر اليانع، وسطر بالأصفر الفاتح (...) في الورق الأحمر القاني مطرّز الجوانب (...) من صاحبُ هذه الرّقعة يا زكي؟ فقال: رجل من رؤساء دمشق ومقدّميهم، أحذق النّاس بالتّرويق في الأوراق، (...) فقال له ابن زريك: ما أدري ما تقول غير أنّك سلبت هذا المذكور فضل الفضلاء، (...) ومع هذا فهي رقعة رجل مهين، تدلّ على جهل قائلها ومهانته. ألا ترى أنّ النّاس توصّلوا إلينا بالفضل والبلاغة، وتوصّل هذا الرّجل بلعب البنات وزخارف الصّبيان، لو كتب هذا الكلام الذي في رقعته على فخذ خروف سمين، وأُلقِيَ على الطريق لأنِفت من أكله الكلاب. قال أبو المجد: وأنا والله ما أتجاسر أوصلها إلى رضوان بعد أن سمعت هذا الكلام"**»[23].

هذا المقطع يسخر فيه الوهراني من «المؤيد بن العميد» الذي كان يهتم بالزّخارف في الكتابة ويُهمل المعاني في السّطور، كمن يهتم بالأمور التّافهة ويترك الأمور المهمّة في حياته. فما كان من أمر الوهراني إلاّ أن قدّم لنا عرضاً درامياً ليبيّن عيوب المؤيد بن العميد، وكأنّ هذا الأخير بعث برسالة لخازن الجنّة يطلب منه طعاماً اشتهاه، وقد عُرف عنه أنّه يهتم بالزّخارف في الرّسائل ويُهمل ما يكتب فيها من قول بليغ. فلمّا صادف الوهراني أبا المجد بن الحكم وهو حامل تلك الرسالة؛ ذكر له من أمر المؤيد بن العميد ما ذكر، على نحو ما ذكرنا في المقطع، فحينها أدرك أبا المجد أنّه يحاول عبثاً فعدَل عن إيصال تلك الرّسالة إلى خازن الجنّة وردّها على المؤيّد.

فالصّورة المرسومة أمامنا للسّخرية التي أمطر بها الوهراني للشّخصية المقصودة تحمل النّقد تجاه من يتقن فنّ التكلّف في الأمور الهامشيّة، ويهتم بالتّنميق والتّزيين في ما لا فائدة فيه، ويترك الأمور الواجب عليه الاهتمام بها كالبلاغة في القول، والإفصاح عن الكلام وإعرابه.

ويستمر الوهراني في إثارة بعض القضايا السياسيّة والاجتماعيّة والمذهبيّة وغيرها التي كانت منتشرة في عصره، وخصال قد عُرِف بها بعض النّاس، فكان يُلبس تلك الجُرم بأحدهم كشخصيّة نمطيّة ليُجري عنها السّرد بسخريّة لاذعة، وبمشهد ساخر وكلّ ذلك في منامه الذي لا دخل له فيه.

ويختم هذا السّرد المتواصل باستيقاظه من نومه وسقوطه من سريره ، وقطع توالد السّرد فجأة، كمن كان غارقاً في حلمه فيستيقظ فجأة ويخرج من كل ما كان فيه في لمح البصر، وهذا ما حدث للوهراني في قوله: «**"فبينا نحن في أطيب عيش وأهناه، وإذا بضجّة عظيمة قد أقبلت وزعقات متتابعة وأصحابنا يهربون. فقلنا: مالكم؟ فقيل علي عليه السّلام: قد أخذ الطّرقات على الشّاميّين، وجاءنا سرعان الخيل فيها محمد بن الحنفيّة يزأر في أوائلها مثل اللّيث الهصور. فلمّا انتهى إلينا صاح بنا صيحة عظيمة هائلة، أخرجتني من جميع ما كنتُ فيه، فوقعتُ من على سريري"**»[24].

ويوجّه سؤالاً لشيخه الحافظ العليمي في خاتمة كتابه بقوله: «**"كيف يرى سيّدنا هذا النَّفَس الطّويل والهذيان الذي أثاره التعتّب والانتقام؟"**»[25]. ويقصد بسؤاله أنّ كل ما

حصل في هذا المنام الطّويل هو بسبب العتاب الذي وجّهه له شيخه الحافظ العليمي، والأخذ بالثّأر الذي لازمه طويلاً.

4/ خاتمة:

نخلص في نهاية هذا المقال إلى القول:

بأنّ الوهراني أديب قدير في فنّه؛ فقد أبدع في صولاته وجولاته التي جاب فيها كلّ ركن ركين ومجال فسيح، ليعرّي مواطن التستّر التي اختمرت بالمظاهر الخدّاعة، ويضع يده على الجراح التي أرّقت جسد الزّمان بالأوجاع ليستأصل موضع الدّاء منها.

إنّ بعض المكاره والأوجاع التي تسلَّط على أحدنا تترك فيه عواطف مؤلمة، وتنخر جسده حتّى تكاد تنهكه بالكامل، لذلك لا يجد وسيلة تؤنسه ليتخلّص من تلك الأوجاع المؤلمة إلاّ بحركة ذهنيّة تسكن داخله لتطرد تلك الآلام خارجاً، وإنّنا لا نجد تلك الوسيلة إلاّ في الضّحك.

هناك العديد من العوامل التي تثير فينا الضّحك وتتباين الغايات صوبها. فمن متّخذ منها غاية: فتجده مثيراً للضّحك من أجل المرح وكفى، ومن متّخذ منها وسيلة لبلوغ مآربه: فتجده يمتطيها ليبلّغ بها رسالته.

تعدّ السّخرية وسيلة هامّة من الوسائل التي عرفها الإنسان منذ القديم، يستعملها في مواقف متباينة ليثير بها ما يودّ أن يقع. وهي سلاح يتسلّح بها الأديب في مواجهة المتسلّطين منهم والمتسكّعين في دياجير الظّلام، فالكلمة في بواخر السّخرية تعبر كل بحور الدّنيا مهما تلاطمت أمواجها وارتفعت.

لقد اتّخذ الوهراني من الهزل والسّخرية عنواناً لعمله الأدبي، وسمة عُرِف بها دون منازع، فقد برع وأبدع في منامه على نحو ما ذكرنا، وكان في طرحه متّزن الرّأي في ما كان يريد قوله من غير إفراط ولا تفريط، وقد أجاد في سلاسة ومرونة دون تكلّف فاضح في تكثيف الحكايات داخل منامه، وقد حافظ على شدّ المتلقّي بتوالد القصص بفتح قضايا متباينة الأبعاد كل مرّة، ليجعل من المتلقّي دائم الترقّب للجديد من الأحداث التي ألبسها الوهراني لباس السّخرية المثيرة للضّحك، وفي الغالب منها يقدّم المظهر الخارجي للحدث، ويترك المتلقّي ليكشف عن أعماق دلائله، ويتبيّن مقاصد السّرد والعبرة منه.

إنّ عملاً أدبيّاً بهذا القدر من البلاغة والبيان، والفصاحة والبرهان، في حاجة ماسّة لإعادة الوقوف عليه مراراً وتكراراً، لأنّه مليء بالدّرر والعطاء الأخّاذ الذي لا يشبع منه صاحب الحسّ الرّهيف، والذوّاق الرّصين المتعطّش لمثل هذا الأدب الرّفيع من مثل أديب كمحمّد بن محرز الوهراني.

هذا المقال يعتبر عملاً سطحياً لم ينفذ إلى أعماق هذا النّص البليغ، ولمن يرغب ركوب أمواجه والغوص في أعماقه، فهو مغدِق لمن تحمّل ذلك ولن يبخل عليه من عطائه.

الهوامش:

[1] أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ت عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979، ج3، ص144.

[2] الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ت، عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ج2، ص226.

[3] محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1955، ج4، ص352.

[4] صادق إبراهيم كاوري، السخرية في الشعر العربي الحديث والمعاصر، مقال بمجلة المعرفة، وزارة الثقافة في الجمهورية السورية، نيسان 2006، العدد 511، ص97.

[5] نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر، ط1، 1978، ص13.

[6] ينظر: أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ت إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1972، ج4، ص385.

[7] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[8] محمد بن محرز الوهراني، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، ت، إبراهيم شعلان، محمد نغش، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، ط1، 1998، ص21، 22.

[9] المرجع نفسه، ص17-19.

[10] نعمان محمد أمين طه، مرجع سابق، ص38.

[11] محمد بن محرز الوهراني،مرجع سابق، ص19.

[12] المرجع نفسه، ص20.

[13] المرجع نفسه، ص21، 22.

[14] المرجع نفسه، ص22، 23.

[15] المرجع نفسه، ص23.

[16] المرجع نفسه، ص24.

[17] المرجع نفسه، ص25.

[18] عبد الملك الثعالبي، الكناية والتعريض، ت، عائشة حسين فريد، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع،، القاهرة، 1998، ص168.

[19] نعمان محمد طه أمين، مرجع سابق، ص45.

[20] محمد بن محرز الوهراني،مرجع سابق، ص25

[21] المرجع نفسه، ص25، 26.

[22] المرجع نفسه، ص29، 30.

[23] المرجع نفسه، 32-35.

[24] المرجع نفسه، ص60.

[25] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ت إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1972، ج4.
2. أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ت عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979، ج3.
3. الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ت، عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ج2.
4. صادق إبراهيم كاوري، السخرية في الشعر العربي الحديث والمعاصر، مقال بمجلة المعرفة، وزارة الثقافة في الجمهورية السورية، نيسان 2006، العدد 511.
5. عبد الملك الثعالبي، الكناية والتعريض، ت، عائشة حسين فريد، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع،، القاهرة، 1998.
6. محمد بن محرز الوهراني، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، ت، إبراهيم شعلان، محمد نغش، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، ط1، 1998.
7. محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1955، ج4.
8. نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر، ط1، 1978.